﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الانتهاءِ من ظُلمةِ الظّالمين، يأتي ذكرُ إشراقِ المؤمنين

لَمّا انتهى المشهد السّابق بإغراق ابن نوح مع الكافرين نظرًا لعِناده واختياره فريق الكفر، وانسدل السِّتار على المشهد بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾؛ حسُنَ الانتقالُ إلى إعلان انْتِهاءِ الطّوفانِ[1]، وذكر النِّهاية المشرقة لأهل الإيمان، والمصير المشؤوم للظّالمين المُغرَقين، ورُسوِّ السَّفينة بالمرحومين النّاجين على الجوديِّ، وعودة الحياة إلى طبيعتها بالأمر التَّكويني الصّادر عن ربِّ العالمين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱبۡلَعِي﴾: أصل البلع: جذب الشَّيء إلى الجوف بقوَّة[2]؛ وحقيقة البَلْع اجْتِيازُ الطَّعام والشَّراب إلى الحَلْقِ بدونِ اسْتِقْرارٍ في الفَم، يقالُ: بَلَعَ الطَّعام والماء والرّيق يبلَعُه، مثل: مَنَعَ يَمْنَعُ، وبَلِعَ يَبْلَعُ، مثْلُ: حَمِدَ ويَحْمَدُ، وبَلِعَ الطَّعام وابتَلَعه وتبلَّعه؛ إذا سرَطَه وجَرَعَه من غير أن يمضغه، والبالوعَةُ[3] ثَقْبٌ في وسَطِ الدّارِ يَجْري فيها ماءُ المَطَر ونَحْوُه[4]، والمَبْلَعُ والبُلْعُم والبُلْعومُ، كلُّه: مَجْرى الطَّعام ومَوْضِعُ الابْتِلاعِ منَ الحَلْقِ[5]، والمعنى هُنا، أي: تَشَرَّبي ماءك[6].

2) ﴿أَقۡلِعِي﴾: أصل (قلع)، يَدُلُّ على انْتِزاعِ شَيْءٍ منْ شَيْءٍ[7]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/78.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلع).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بلع)، وابن القوطيَّة، كتاب الأفعال، ص: 281.
(4) الجوهري، الصّحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (بلع).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بلع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/334، والقنوجي، فتح البيان: 6/187.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلع)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 162.

والإقلاعُ الإمساكُ والكفُّ والإزالة[1]، وأقْلَعَتِ السَّماءُ؛ إذا انقطع مَطَرُها، وأقْلَعَتِ الحُمَّى، إذا: كَفَّتْ، وزالت عن صاحبها، يُقال: أقلعَ الرَّجلُ عن عمله؛ إذا كفَّ عَنهُ، وأقلعت السَّماء بعْدما مَطَرت؛ إذا أمْسَكت[2]، والإقلاعُ عن الأمْرِ: الكفُّ عَنْهُ[3]، والمعنى هنا، أي: أمسِكي عن إرسال المطر[4].

3) ﴿وَغِيضَ﴾: أصل (غيض) يدُلُّ على نُقْصانٍ في شَيْءٍ وقِلَّةٍ، وغيض: نَقَصَ، يُقالُ: غاضَ الشَّيْءُ، وغِضْتُهُ أنا، كَما يُقالُ: نَقَصَ بِنَفْسِهِ، ونَقَصَهُ غَيْرُهُ[5]، ويُقال: غاض الماءُ يَغيضُ: خِلافُ فاضَ، وغيضَ؛ إذا نَقَصَهُ غَيْرُهُ[6]، ويَجوزُ"غُيضَ" بِضَمِّ الغَيْنِ، والمرادُ ذهابُ الماء في أعماق الأرض، وغَوْرُهُ، وغيبتُه في الأرْضِ عَلى جِهَةِ النَّشَفِ[7].

4) ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾: الاستواء والاستقرار والرّسوُّ، واسْتَوى عَلَى ظَهْرِ دابَّتِهِ، أي: اسْتَقَرَّ وثبت[8]، وأصلُ (سوي) يدُلُّ عَلَى استقامةٍ واعتِدالٍ بين شيْئَيْنِ[9]، والمُرادُ: رست السَّفينة، واستقرَّت على الجوديِّ[10].

5) ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾: اسْمُ جَبَلٍ بَيْنَ العِراقِ وأرْمينيا[11].

6) ﴿بُعْدًا﴾: هَلاكًا وسُحْقًا لَهُمْ؛ مصدرٌ من الفعل (بَعِدَ)، يُقال: بَعِدَ يَبْعَدُ بُعْدًا[12]؛ وأصل البُعد الهلاك[13]، ويستعمله العربُ في الدُّعاء بالإهلاك والذَّمِّ، والأكثر أن يقالَ: (بَعِدَ) بكسر العين في البُعْدِ المَجازيِّ بمعنى الهلاك والموت، وبَعُدَ بضم العين في البُعد الحقيقيِّ[14].

(1) السَّمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: (قلع).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (قلع).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (قلع).
(4) البروسوي، روح البيان: 4/135.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلع).
(7) ابن سيده، المخصص: 3/38، والرّاغب، المفردات: (قلع).
(8) الرّازي، مختار الصّحاح: (سوا).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/335.
(11) الحموي، معجم البُلدان: 2/259.
(12) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (بعد).
(13) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعد).
(14) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إيـجـازُ قـصَّـة سفينةِ النَّجاةِ بـأوجـزِ عـبـارةٍ، وأرسـخ ألفاظٍ، وأبلغِ نظمٍ

هذه آيةٌ من آياتِ إعجازِ القرآنِ المجيد، آيةٌ كاشفةٌ عن مسيرِ آيةِ النَّجاة الحاملةِ للأصول البشريَّة، تأتي بعد انتهاءِ الغرضِ الذي لأجلِه كان الطّوفان، من إغراق المجرمين، وإعادةِ إعمارِ الأرض بعد تطهيرِها من دنسِهم، فالتَّخلية قبل التَّحلية، ولا يبرأُ الجرحُ ما لم يُطهَّر من عِلله وآفاته، وهذه الآية تنهيدةُ الأرض بعد التَّخلُّص من فسادِها، فإنَّ فسادَ الأرض إذا طال؛ مَقتتِ الأرضُ ساكنيها، وها هو أمر الأرض: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، وأمر السَّماءِ: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، والإخبارُ باستقرارِ الأمورِ، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ بعد أن فاض، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بعد أن جاء، ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ لتكون علامةَ صدقٍ وأمارةَ حقٍّ، ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ الذين تجاوزوا حدَّهم في الكفر والفجور والهزء بدينِ الله تعالى.

وقد قصَّتِ الآيةُ القِصَّةَ مُستوعبَةً بأخصر عبارة[1]، وفي هذه الآية من الإيجاز ما يعجز البيان عن استيفاء تحليله وشرحه، فقد أمر فيها ربُّنا، ونَهَى، وأخبرَ، ونادى، ونعَتَ، وسمّى، وأهْلَكَ، وأبْقى، وأسْعَدَ، وأشْقى، وقصَّ من الأنباء ما حقَّق به الغاية القصوى من البيان[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الوصْل بالواو في ﴿وَقِيلَ﴾:

الإعـلامُ بانتهاء الـطّـوفـان بعد تـحـقُّـقِ إغـراقِ الظّالمين

لمّا أفاد قولُه تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ وقوعَ الغرق الموعود به على وجه الإيجاز؛ انتقل الكلام إلى الحديث عن انتهاء الطوفان[3]، فقال: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ﴾ ولم يقل: (قيل يا أرض) مثلما قال بعدها في آخر القصة: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: 48]؛ فلمّا تقدَّم الإخبار

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(2) ابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 430.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.

عن نوح مع قومه مُرتَّبًا موصولًا وصْلَ جملةٍ بجملةٍ، مَعطوفًا عطْفَ لاحقٍ على سابق من الإرسال، وبالإيحاء إليه في شأنهم، وأمرِه أن يصنع الفُلك، والإخبار بالأمر لها، وبمجيء الأمر بإهلاكهم، وبالرُّكوب في الفلك والإخبار عنها، وبنداء نوحٍ ابنه، وبحَوْلِ الموج بينهما؛ وصَلَهُ بقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ﴾، فوقعَ ذلك كُلُّه معطوفًا بالواو على أحسن نسقٍ وألطفِ وصلٍ بخلاف قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾، فإنَّه وقع جوابًا لتعوُّذ نوحٍ بربِّه أن يسأل ما ليس له به علم، فتعيَّن الفصل لذلك، ولو وصل بالعطف لانقطع الكلام، ولم يكن للسُّؤال جوابٌ، فظهر ما بينهما من كمال الانقطاع، وما بين ذلك من كمال الاتِّصال[1]، وفي هذا الوصل إعلامٌ بأنَّه لمّا غرق أهلُ الأرض، ولم يبقَ ممَّن كفرَ باللّه ديّار؛ أمر تعالى الأرضَ أن تبلعَ ماءها الذي نبعَ منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلع عن المطر، فنضب الماء، وقُضي أمر اللّه بإنجاء من نجا، وإهلاك من هلك[2].

دلالةُ التَّعبير بصيغة المبني للمفعول:

الإيجازُ الدّالُّ على كثرةِ المعاني وتعدُّد الدّلالات

شرعتِ الآية بالفعل المبنيِّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه: ﴿وَقِيلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؛ لأمورٍ بيانيَّة عظيمة موجزها الآتي:

الأوَّل: أنَّ الفاعل الحقيقيَّ معلومٌ ظاهرٌ لا خلاف في تعيينِه، وعدم ذكره؛ لأنَّ المقام يصرِّح به، ويومئ إليه، والحال ينطق به؛ إذ لا يُسْمع الأرضَ غيرُه، ولا يأمر السَّماء، فتمتثل أمرَه سواه[3].

الثّاني: مثْل هذا القول العظيم: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ لا يَصْدُرُ إلّا منَ اللّه العظيم العليم الحكيم القادر المُقتدر؛

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي في آية يا أرض ابلعي، ص: 161.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1141.

فقد تقرَّر في العقول: أنَّه لا حاكم في العالمين، ولا متصرِّف في العالم العلوي والعالم السُّفلي إلّا هو[1]، فبناء فعل ﴿وَقِيلَ﴾ للمفعول هُنا اختصارٌ لظهور فاعل القول وتَعَيُّنه؛ لأنَّ المقام مقام اختصار[2].

الثّالث: الإشارةُ إلى أنَّ الأرضَ والسَّماء تمتثل لأمرِ الله تعالى بأدنى إشارةٍ آمرةٍ بالامتثالِ، تعريضًا بمن أعرضَ، وكفر، وعاند رسول الله نوحًا ﷺ ألفَ سنةٍ إلّا خمسين عامًا، فلا حاجة لاستحضارِ الهيبة وتأثيرِها في نفوس المخاطَبين، فهو أمرٌ تستجيب له الأرض والسَّماء بأن يُشار، فكيف إذا قيل؟!

الرابع: إفادة الإبهام ليذهب السّامع كُلَّ مذهب، ويطلبَ الصَّوابَ من مقصدٍ ومطلب، ويُعملَ العالم فِكره الصَّحيح ليظهرَ له وجه الصَّواب بالتَّرجيح، فيتحققَّ أنَّ القائل في هذا المقام هو في الحقيقة الملك المقتدر العلّام[3].

بلاغةُ التَّعبير بالنِّداء ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾؛ فلم يقل: (وقيل للأرض) كذا (وللسماء) وذلك للآتي:

تنزيلُ غير العاقل هنا منزلةَ العقلاء للتنويه بذكره والتّشريف لقدره

الأوَّل: ظهور العناية بالإقبال على المنادى تنويهًا بذكره وتشريفًا لقدره، ولهذا نزَّله منزلة العاقل، فكان لامتثال أمره غيرَ غافل، كقوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 69].

الثّاني: التَّنبيه على أنَّ القُدرة العظيمة صالحةٌ بأنْ تصيِّر هذه الأجرام الجسيمة إلى حال من يعقل، وتوصَل مثل هذه الجمادات الكثيفة إلى رتبة من يعقل، وإلّا فخطابُ مَن لا يعقل مُهمَل، والإقبال عليه بالأمرِ أمرٌ مُعضَل[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/353.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/134، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.
(3) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 162.
(4) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 163.

الثّالث: التَّعريض بمن نودي مئات السِّنين من العقلاءِ، فلم يستجب، فكانت الجمادات أشرفَ وأكرمَ منه؛ فكان من إكرامها استعمالُ أدوات العقلاءِ ومعاملتها على أساس التَّكريم.

نكتةُ استعمال أداة نداء البعيد:

إظهار عظمة المُنادي الجليل والإيذان بشأن المُنادى الخاضع لمولاه

اختيار حرف النِّداء (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، دونَ سائرِ أخَواتِها من أدوات النِّداء، هو لِكَوْنِها أمَّ باب النِّداء، وأكثر أدواته استعمالًا، وهي تدلُّ عَلى بُعْدِ المُنادى الَّذي يستدعيه مقامُ إظهار العظمة المُؤْذِنُ بالبُعدِ الشّاسع بين المنادِي والمنادَى، وبيان ضَعْفِهِ وخضوعه لمولاه وخالقه الجليل[1].

نكتة عدم استعمال: (أيَّتُها):

الاحتراز من تَكَلُّف التَّنبيه لمن ليس من شأنه التَّنبُّه

لم يقل: (يا أيَّتُها الأرضُ) مع كثرته في نداء أسماء الأجناس؛ قصدًا إلى الاختصار والاحتراز عن تكلُّف التَّنبيه المُشعِرِ بالغفلة التي لا تُناسب ذلك المقام[2]، أي: تَكَلُّفُ التَّنبيه لمن ليس من شأنه التَّنبيه[3] حيث يُتوصَّل إلى ندائها بـ (أيِّ)؛ لعلَّها كانت غافلة، فتسمع آخر النِّداء؛ إذ لا يمكن الغفلة عن أيِّ حرف يصدر عن هذا المنادي[4].

دلالةُ إفراد (أرض) و(سماء) وتنكيرهما:

مقامُ إظهار العظمة والكبرياء للخالقِ تُناسبُه ألفاظُ التَّواضع والهوان لمخلوقاته

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ جيء بالإفراد في لفظتَي (أرض) و(سماء) دون الجمع لما في الجمع من صورة الاستكثار المتأبّي عنها مقامُ إظهارِ الكبرياء[5]، كذلك جيءَ بهما نكرتين دون تعريفهما بأل، لعدم انتظام ذلك إلّا بدخولِ

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/24.
(4) السّامرائي، على طريق التَّفسير البياني، ص: 164.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.

(أَيَّتُها)، وهو غير مرادٍ - كما سبق بيانه - ولإعلام السّامعين أنَّها أرضٌ وسماءٌ للّه تعالى من أراضيه وسماواته.

سِرُّ اختيار نداءِ الأرض والسَّماء بهذين الاسمين:

الأصل جريانُ الأمورِ على اعتيادِها وارتيادِها

اختيرَ لفظُ الأرض والسَّماء على سائر أسمائهما كالمُقلة، والغبراء، وكالمظلة، والخَضراء؛ لكونهما أخصر، وأوْردَ في الاستعمال وأوفى بالمُطابقة، فإنَّ تقابلهما إنَّما اشتهر بهذين الاسمين[1]، ولبيانِ أنَّ الأمرَ اتَّجه إلى الأرضِ والسماءِ بهذا الاعتبارِ لا بأيِّ اعتبارٍ آخر، فالأصل جريانُ الأمور على ظواهرِها، ومضيُّها على معتادِها.

سرُّ تقديم النِّداء على الأمر:

تنبيه المنادى مقدَّمٌ على أمرِه

قَدَّم النَّظم النِّداءَ عَلى الأمْرِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، ولم يقل: (ابلعي ماءك يا أرض، وأقلعي يا سماء)؛ وذلك كانَ جَرْيًا عَلى مُقْتَضى اللّازم فيمَن كانَ مَأْمورًا حَقيقَةً من تَقْديم التَّنْبيهِ أوَّلًا؛ ليَتَمَكَّنَ الأمرُ الواردُ عَقيبَهُ في نفس المُنادى كما في نداء الحي[2]، فهي تنزيلٌ للأرض والسَّماء منزلةَ الأحياءِ في التَّنبيه بالنِّداء فالأمرِ.

سِرُّ اختيارِ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون مرادفاتها:

بلغُ الماءِ سرعةُ استجابةٍ تستلزمُ تطهيرَ الأرضِ من دنسِها

استعمل النَّظم الكريم - في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ - لفظة ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون مرادفاتها لاعتبارين اثنين:

الأوَّل: اعتبارٌ معنويٌّ: وهو أنَّه لا يقوم لفظٌ مرادفٌ آخرُ في معنى البلع، وهو ازدرادُ اللُّقمة ونحوها في الحلقوم ونحوه دفعة واحدةً من غير توقُّفٍ لمضغٍ ولا نحوه، فلمّا أمر اللّه تعالى بتفجير الأرض عيونًا نبع الماء من تلك العيون، فلمّا انتهى أمر الطُّوفان؛ أمر اللّه تعالى الأرض أن تبتلع ماءها، بحيث يرجع الماء غائرًا في تلك العيون

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(2) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

تبتلعه الأرض بأسرع وقتٍ لأمر اللّه تعالى وإذنه، وهذه السُّرعةُ مؤذنةٌ بتطهير الأرضِ من دنسِها، فإنَّ الماءَ إذا سارع إلى جوفِ الأرض؛ أخذ معه العوالق.

الآخر: اعتبار لفظيٌّ: فهو مراعاة حُسْنِ الجناس بين لفظة ﴿ٱبْلَعِى﴾ ولفظة ﴿أَقْلِعِى﴾ الواردة بعدها[1]، وهذا الاعتبارُ في حقيقته مردودٌ للأوَّل، فالمراعاة اللَّفظيَّة تأتي بعد المراعاة المعنويَّة؛ إذِ الفرع مردودٌ إلى أصله، ولو كانت المراعاة اللَّفظيَّة مقصودةً لذاتِها؛ لرأيناها حاضرةً في كلِّ تقابلٍ قرآنيٍّ.

الغرض من التعبير بالاستعارة المكنيَّة:

الاستعارةُ المكنيَّة في تشبيهِ الأرضِ والسَّماءِ بشخصٍ يُنادَى لبيانِ سرعة الامتثال وإرادة الاستجابة

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾: شبَّه النَّظمُ الأرضَ والسَّماءَ بالعقلاء، حيث ناداها بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَرْضُ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَيَـٰسَمَآءُ﴾، ففي خطابِ الأرض تشخيصٌ وتشبيهٌ لها بالعقلاء الذين يُخاطَبون، فيعقِلون، فيُبادرون إلى تنفيذ الأمر عن قبولٍ وطواعيّةٍ وخشيةٍ، فما هو إلّا أمرٌ وامتثال؛ أمرُ من قال للشَّيء: كن فيكون[2]، فالسَّماء والأرض مع عِظَم جِرمهما تابعتان لإرادته إيجادًا وإعدامًا وتغييرًا وتصريفًا؛ كأنَّهما عقلاء مميِّزون قد أحاطا علمًا يوجب الامتثال والإذعان لخالقهما[3]، قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كلِّ مقدور، وتبيَّنوا تَحَتُّمَ طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه، ويفزعون من التَّوقُّف دون الامتثال له، والنُّزول على مشيئته على الفور من غير ريث[4].

فخطاب الأرض والسَّماء بطريقة النِّداء استعارةٌ مكنيَّةٌ تبعيَّةٌ[5]،

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 165.
(2) محمَّد الحجازي، التَّفسير الواضح: 2/125.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/397، والشِّهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي: 5/170.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.

تشبيهًا لهما بالمأمور المنقاد، وأثبت لهما ما هو من خواص المشبَّه به، وهو النِّداء، والخطاب بالأمر ترشيح للمكنيَّة في المنادى، فخاطب في الأمر دون أن يقول: (ليبلع)؛ ترشيحًا لاستعارة النِّداء؛ إذ كونه مُخاطَبًا من صفات الحيِّ، كما أنَّ كونه مُنادًى من صفاته[1]، حيث نادى ربُّنا ﷻ الأرْضَ والسَّماءَ بما يُنادى بِهِ الإنْسانُ المُمَيِّزُ عَلى لَفْظِ التَّخْصيصِ والإقْبالِ عَلَيْهِما بالخِطابِ من بَيْنِ سائِرِ المَخْلوقات، وهو قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾ و﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ثُمَّ أمرهما بما يُؤْمَرُ به أهلُ التَّمييز والعقل من قوله تعالى: ﴿ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾ و﴿أَقْلِعِي﴾، تصويرًا لاقتداره العظيم، وإنَّ السَّموات والأرض، وهذه الأجرام العظام تابعةٌ لإرادته إيجادًا وإعدامًا، ولمشيئته فيها تغييرًا وتبديلًا، كأنَّهما عقلاء مُميِّزون، وقد عرفوه حقَّ معرفته، وأحاطوا علمًا بوجوب الانقياد لأمره، والإذعان لحُكمه، وتحتَّم بذلُ المجهود عليهم في تحصيل مُراده، وتصوَّروا مزيدَ اقتداره، فعظمت مهابتُه في نفوسهم، وضربتْ سُرادِقَها في أفنية ضمائرهم، فكما يلوِّح لهم إشارته كان المشار إليه مقدَّمًا، وكما يرد عليهم أمرُه؛ كان المأمورُ به متمَّمًا[2].

الغرض من التعبير بالاستعارة التَّمثيليَّة:

الاستعارة التَّمثيليَّة في بيان هيئة الأرض والسَّماء بعد النِّداءِ والأمرِ

في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ شُبِّهت الهيئة المنتزعة من كمال قدرة الله على رَدِّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها، وجعْلِه مضمحلًّا بحيث لا يبقى له أثرٌ ولا رسمٌ، وقَطْعِ انصباب المطر من السماء؛ بالهيئة المنتزعة من أمرِ الآمر المطاع، وطاعة مأمورٍ مطيعٍ لهذا الآمر، فذُكِرَ اللَّفظُ المركبُ الدّال على الهيئة المشبَّهة به ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾، وهو وجودُ

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.

(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 418، والزَّمخشري، الكشّاف: 2/397، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/159.

نداءٍ ومنادًى وآمرٍ ومأمور، وأريد به الهيئةُ المشبَّهة، وهي بلعُ الأرضِ لمائها، وإقلاعُ السَّماءِ عن صبِّ الماءِ، ووجهُ الشبه: هو الهيئة الحاصلة من الانقياد والامتثال بلا توقُّفٍ ولا تلعثم[1]، وسرعة حصول هذين المُرادين ووجودهما على الفور من غير امتناع[2].

فالاستعارةُ في هذا التَّشبيه هي استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ بتمثيلِ حال الأرضِ والسَّماءِ بحال عاقلٍ يمتثل لأمرِ آمرٍ يُناديه، فيستجيب دون أدنى تأخُّرٍ أو تردُّدٍ.

بلاغة الاستعارة في: (البلع):

سـرعـة الأرض في تنفيذ الأمـر الإلهي

في إجراء الاستعارةِ في لفظ (البلع) - من قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ - توجيهان[3]: الأول: أن يكون من باب تشبيه النَّشفِ بالبلع، والآخر: أن يكون من باب تشبيه غور الماء في الأرض بالبلع، وكلاهما على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وهذا بيانهما:

الأول: شبَّهتِ الآيةُ النَّشفَ بالبلعِ، فهي استعارةٌ تصريحيَّة، فمادَّة البَلْع مُستعارة لإدْخالِ شيءٍ في باطِنِ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ، والبلع حقيقته اجتياز الطَّعام والشَّراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم، وهو هنا استعارة لإدخال الماءِ في باطن الأرض بسرعة، ومعنى بَلْعِ الأرْضِ ماءها: دخوله في باطنها بسرعةٍ كسرعة ازدراد البالع، بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمسٍ أو رياح، بل كان بعملٍ أرضيٍّ عاجل، كأن يكون ذلك بإحداث اللّه زلازلَ وخسفًا انشقَّت به طبقةُ الأرض في مواضع كثيرةٍ حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض[4]، ففيه

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/90، والشهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على البيضاوي: 5/170.

(2) عمر الأسبري، الرسالة الجودية في الآية النوحية، ص: 35.

(3) جاء في الكشاف: "جعل البلع مستعارًا لنشف الأرض الماء وهو أولى، فإنَّ النشف دالٌّ على جذبٍ من أجزاء الأرض لما عليها، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان، ولأنَّ النَّشف فعل الأرض، والغور فعل الماء". يُنظر: الزمخشري، الكشاف: 2/397، والشِّهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي: 5/170.

(4) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 3/175.

دلالةٌ على أنَّه ليس كالنَّشَفِ المعتاد التَّدريجيِّ[1]، والاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لأنَّ النَّشف دالٌّ على الوضع المعتادِ، فهو نشفٌ غير معتادٍ، ولذلك نجد أنَّ هذه الاستعارة تُلامسُ الحقيقةَ.

الآخر: تشبيه غور الماء في الأرض بالبلعِ، ووجه الشَّبه الذَّهابُ إلى مَقَرٍّ خفيٍّ، فالبلع الذي هو إعمالُ القوَّة الجاذبة في المطعوم شُبِّه به غور الماءِ، وهو الذَّهاب في الأرض[2]، وتكون قرينة الاستعارة نسبة الفعل إلى المفعول[3]، وهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة[4]. والحاصل أنَّ في لفظ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ - باعتبار جوهره - استعارةً لنشفِ الأرض أو لغَوْرِ الماء، وباعتبار صورته - أي: كونه صورةَ أمْرٍ - استعارة أخرى لتكوين المُراد، وباعتبار كونه أمْرَ خطاب ترشيحٌ للاستعارة المكنيَّة التي في المنادى، فإنَّ قرينتها النِّداء، وما زاد على قرينة المكنيَّة يكون ترشيحًا لها[5]، فتنوَّعت الاستعارات بين أن تكون في مجموع الكلام، أو تكون في المفردات، ولا تنافي بينهما[6].

نكتةُ استعمال صيغة ﴿ٱبۡلَعِي﴾:

اختار النَّظم لفظَ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون (ابتلعي) في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، فهو بلعٌ لا ابتلاعٌ؛ لسببين:

البلع دالٌّ على فوريَّة الامتثال والابتلاع دالٌّ على التَّدرُّج فيه

الأول: سببٌ دلاليٌّ وهو المعتبر، فإنَّ الابتلاعَ يدلُّ على كلفةٍ ومشقَّةٍ في العمل، ومن شأنه أن يأخذ وقتًا تدريجيًّا، فأتى النَّظم بالصِّيغة الدّالَّة على سرعةِ الاستجابة، وفوريَّة الامتثال، لبيان أن الذي وقع هو بلعٌ سريعٌ لا ابتلاعٌ تدريجيٌّ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/211.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 418.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) محيي الدّين زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 4/650، والبروسوي، روح البيان: 4/134.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.
(6) الأسمري، الرِّسالة الجودية، ص: 35.

الآخر: سببٌ لفظيٌّ وهو تابعٌ للسّابق، فلكون لفظِ (بلع) أخصرَ من ابتلع، ولمجانستِه للفظِ ﴿أَقۡلِعِي﴾ أوفر[1]؛ لأنَّ همزة الوصل إن اعتُبرت تساويًا في عدد الحروف وإلّا تقاربًا فيه؛ بخلاف ابتلعي[2].

دلالةُ الاستعارة المكنيَّة في: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾:

تشبيه الماءِ بالغذاءِ لتقويةِ الأرضِ ورفدِها بغذائها

في جعل الماء مكان الغذاء استعارة مكنيَّة، حيث شبَّه الماء بالغذاء؛ لتقوى الأرض به في الإنبات للزُّروع والأشجار تقوّي الآكلِ بالطَّعام الذي يقوّي بدنه، فيَقْوى به على الإنبات وسائر المنافع[3]، وحذف المشبه به: وهو الآكل، وذَكَرَ صفة من صفاته: وهي البلع، فلفظة ﴿ٱبۡلَعِي﴾ قرينةٌ على الاستعارة؛ لكونها موضوعةً للاستعمال في الغذاء دون الماء[4]؛ لتخصيص البلع بما يُؤكل على المشهور عند اللُّغويين[5].

الغرض من تقديم بلعِ الماءِ على حبسِهِ:

نزولُ ماءِ السماء لتطهير بقايا الأوباش من الأرضِ وتنظيف الأرض من أيِّ علائق

قد يسأل سائلٌ عن سرِّ تقديم الأمر ببلع الماءِ على حبس الماءِ النّازلِ من السَّماء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؟ وما يقتضيه ظاهر الأمر أنَّ منعَ إنزال الماءِ هو المقدَّم؛ لأنَّه الرّافد للأرض، فمنْعُ الرّافدِ مقدَّمٌ في هذه الحال على بلعِ المرفود، وفي الإجابةِ عن هذا توجيهاتٌ عديدةٌ:

الأول: قُدِّم ذكرُ أمرِ الأرض على أمر السَّماء، وابتُدئ به لابتداء الطّوفان منها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ ونُزِّلت الأرضُ في القصَّة منزلة الأصل، والأصل بالتَّقديم أولى[6]، فقُدِّمت الأرضُ هاهُنا باعتبارِ الزَّمان

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/211.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/259.
(6) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.

والرُّتبة، وذلك أنَّ الماء نبع أوَّلًا من الأرض، ولكون السَّفينة وأهلها على وجهها[1].

الثاني: قُدِّم ذكرُ الأمر بالبلع؛ لأنَّه السَّبب الأعظم لغيض الماء[2].

الثّالث: الماءُ النّابع من الأرض والنّازل من السَّماءِ في الأرض، فلمّا كان الماءُ مجتمعًا في الأرضِ كان البَدْءُ به أمثل.

الرّابع: المقصود حصولُ استقرارِ السَّفينة؛ فكان الأهم هو البدء بالأرض التي تستقرَّ فيها إذا بلغت ماءها، حتَّى تتمكَّن السَّفينة من الرُّسوِّ على اليابسة، ويخرج ركّابها لمباشرة الحياة[3].

الخامس: نزول الماءِ من السَّماءِ بعد ابتلاع ماءِ الأرض له وظيفةٌ تطهيريَّة، وهي أنَّ جثث الأوباش وعلائقهم قد يبقى لها أثرٌ في الأرض، فإنزال ماءِ السَّماءِ بعد ابتلاعِ ماءِ الأرض يكون تطهيرًا أخيرًا لظاهرِ الأرض من تلك الجثث، ويُعزِّزه قولُ الحقِّ سبحانه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26].

السادس: تصويرُ السماء بإنزال آخر مائها بعد بلع الأرض لكلِّ مائها، بمن أراد تنظيف بيته من آخر أوساخه، بصبِّ الماءِ على ظاهره صبًّا أخيرًا.

فائدةُ ذكرِ المفعولِ في: ﴿مَآءَكِ﴾:

بلْعُ الماءِ دون غيرِه جوابٌ لمن يسأل عن ماهيَّة المبلوع

عيَّن النَّظم الكريم المبلوع ﴿مَآءَكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾؛ لئلّا يَعُمَّ فتبتلع كلَّ شيء على ظهرها[4]، من جبالٍ وتلالٍ وبحارٍ وساكنات الماء بأسرهنَّ، نظرًا لمقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء[5]، فالغرض من ذكر المفعول هو إفهام السّامعين أنَّ الله ﷻ

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 165.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/357.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/291.
(5) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.

إنَّما أمر الأرض ببلعِ شيءٍ واحدٍ وهو الماء، فلم يذهب شيءٌ آخر في جوف الأرض، ففي ذكره جوابٌ عن سؤالٍ قد يُثيرُه الذِّهن، وهو: هل ابتلعت الأرضُ شيئًا سوى الماء؟ فذِكْرُ المفعول يقطع قول كلِّ سائلٍ، كما أنَّ ذكر المفعول فيه بيانٌ أنَّ الأرض عوملت معاملة العقلاء في تعيين وظيفتها بدقَّةٍ، فهو ترشيحٌ للاستعارات المذكورة آنفًا.

سرُّ إضافة الماء إلى الأرض دون السَّماء:

بيانُ عظيم قدرةِ الله تعالى بفصلِ ماءِ الأرضِ عن غيرِه

جاء النَّظمُ بإضافة الماء إلى الأرض: ﴿مَآءَكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، ولم يقل: (يا أرض ابلعي الماءَ)، كما قال: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾، فإنَّه لمّا كان ماءُ الطّوفان ماءين: ماءً نبع من الأرض، وماءً نزل من السَّماء، أمرَ الأرض ببلع الماء الذي نبع منها، كأنَّه قال: أدخلي الماء الذي خَرج منك فيك[1]؛ لأنَّ البلع هو الاسترا ط في المتصل، يُقال: بلعت ريقي، وأبلعته، وابتلعت ما في فمي، ولا يُقال: ابتلعت ما في القصعة والكأس[2]، فالأرضُ قد أخرجت ماءها، كما يُخرج الإنسان ريقه، ثم ابتلعته، ولم تأتِ على ماءٍ آخر، كان موجودًا قبل الطّوفان، كما أغنت إضافة الماء إلى الأرض عن إضافته إلى السَّماء؛ لأنَّ ما نزل من السَّماء صار في الأرض، ولو أضاف؛ لطال الكلام؛ لأنه سيكون: يا أرضُ ابلعي ماءك الخارجَ منك، وماءَ السَّماء الذي أُنزل عليك؛ فإضافة الماء إلى الأرض إيجاز.

سرُّ المجاز في: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾:

تصويرُ الأرض بالحريصةِ على مائها كحرص المالك على ملكه

شُبِّه اتِّصال الماءِ بالأرض في قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ باتصال الملكِ بالمالك، فإنَّ إضافَةَ الماءِ إلى الأرْضِ هو من قبيل الاستعارة المكنيَّة في الهيئة الإضافيَّة الدّالة على الاختصاص المُلْكي، تَشْبيهًا لاتِّصالِ الماءِ بالأرْضِ باتِّصالِ المُلْكِ بالمالِكِ، فشُبِّهتِ الأرضُ بمن

(1) السيواسي، عيون التَّفاسير: 2/203.
(2) الجرجاني، درج الدُّرر: 2/103.

من شأنه أن يملك، وحُذف المشبه به، ورُمز له بشيء من خصائصه، وهو الإضافة على تقدير لام الملك، واخْتيرَ ضَميرُ الخِطابِ دون أن يقول: (ليُبلع ماؤها)؛ لِأَجْلِ التَّرْشيحِ[1] لهذه الاستعارة، من حيث إنَّ الخطاب يَدُلُّ على صُلوح الأرض للمالكيَّة[2]، فجعله ماءها لاتِّصاله بها اتِّصالَ الملك بالمالك[3]، وفيه توجيه الأرض للاحتفاظِ بمائها، كما يحتفظ المالك بملكه.

نكتةُ إفراد الماء في ﴿مَآءَكِ﴾:

الأرض مأمـورةٌ ببلعِ مائها دون بقيَّة المياه

قيل هُنا: ﴿مَآءَكِ﴾ بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبّي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت والعزة والاقتدار[4]، كما أنَّه لو جمع الماءَ؛ فقال مياهك؛ لدخل فيها كلُّ ماءٍ، ولاختلَّ ما سبقتِ الإشارةُ إليه من أنَّ الأرض مأمورةٌ ببلعِ الماء الخارج منها بعد فوران التَّنور.

بلاغةُ الإيجاز في سياق حديث الطُّوفان:

كـمـالُ انـقـيـادِ الأرض والسَّماء قـطـعـيٌّ، وتحقيقُ المطلوبِ حتميٌّ

لمّا قال ﷺ للأرض: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ وقال للسَّماءِ: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؛ عُلِم أنَّ الأمر قد تحقَّق، فإنَّ أمر الله تعالى للأرض والسَّماء قطعيُّ الوقوعِ، فلم يقل: (قيلَ: يا أَرْضُ ابْلَعي، فبلعت، ويا سَماءُ أَقْلِعي، فأقلعَتْ)[5]؛ لأنَّ مقام الكبرياء وكمال الانقياد يُغني عن ذكره الذي ربَّما أوهم إمكان المُخالفة[6]، وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ مغنٍ عن التعرُّض إلى كون السماء أقلعت، والأرض بلعت[7]، كما أنَّه إيجازٌ واختصارٌ واحترازٌ عن الحشو المُستغنى عنه، وهذا هو

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/79.

السَّبب في ترك ذكر حصول المأمور به بعد الأمر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المكلَّف العاقل أحرى به أن يستجيب لأمرِ اللّه تعالى؛ إذا ناداه فيما فيه حياته ونعيمه ورفعته وعزَّته.

غرضُ الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿أَقْلِعِي﴾:

التَّعبير بالإقلاع يصوِّر معنى الاحتباس والكفِّ عن إنزال الماءِ

استُعملت مادَّة الإقلاع في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ للتَّعبير عنِ احْتِباسِ المَطَرِ؛ لأنَّ الإقلاعَ في أصل الوضع اللُّغويِّ هو تَرْكُ الفاعِلِ الفِعْلَ، وذلك لِلشَّبَهِ بين الاحتباس والإقلاع في عدم ما كان[1]، فهو تشبيه الاحتباسِ وكفِّ السَّماء عن إنزال المطر بالإقلاع[2] على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ثُمَّ أمَرَ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ، وخاطَبَ السَّماءَ آمرًا بقوله تعالى: ﴿أَقْلِعِي﴾ لِمِثْلِ ما تَقَدَّمَ في ﴿ٱبْلَعِي﴾.

ففي ﴿أَقْلِعِي﴾ استعارةٌ باعتبار جوهره، وكذا باعتبار صيغته أيضًا، وهي مبنيَّة على تشبيه تكوين المُراد بالأمر الجازم النّافذ، والخطاب فيه أيضًا ترشيحٌ لاستعارة النِّداء، والحاصل أنَّ الكلام فيه مثل ما مَرَّ في ﴿ٱبْلَعِي﴾[3].

بديع الجِناس بين ﴿ٱبْلَعِي﴾ و﴿أَقْلِعِي﴾:

تصوير مشهد بلع البحار وإقلاع الوابل المدْرار

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ بين ﴿ٱبْلَعِي﴾ و﴿أَقْلِعِي﴾ جناسٌ لاحقٌ، اختلف في حرفين: وهما القاف والباء، وهما غير متقاربين، كقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: 1] فهذا يُقال له: جناسٌ لاحقٌ[4]، ولا يخفى موقِعُهُ من قلب السّامع فيما يُحدِثه اللَّفظان من تناسقٍ لفظيٍّ وصوتيٍّ، وأثَرٍ معنويٍّ يُصوِّر ذلك المشهد العجيب والموقف الرَّهيب المهيب في بلع تلك البحار من المياه، وإقلاع ذلك الوابل الغزير المدْرار.

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(4) الجناس اللّاحقُ اختلافٌ في حرفٍ واحدٍ مع تباعد المخرج، يُنظر: العلويّ، الطراز: 3/138.

دلالة الطِّباق بين (الأرض) و(السَّماء):

تصوير انتهاء الطّوفان على الأرض، وقطع إمـــداده من السَّماء، وزوال أثره

في قولهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ورد الطِّباقُ اللَّفظيُّ بين لفظتَي (الأرض) و(السَّماء)، وقد توافقَ مع طباقٍ معنويٍّ، وهو قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي﴾ و﴿أَقۡلِعِي﴾؛ لأنَّ المعنى في بَلْعِ الأرض، إنَّما هو إدخاله في جوفها، وإقلاع السَّماء، وهو إخراجه عنها؛ وهذه مطابقة من جهة المعنى، ومن جهة أنَّ الإدخال والإخراج ضِدّان، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: 29]؛ لأنَّ الرَّحمة هي لين القلوب وتعطُّفُها، وهو ضِدُّ الشِّدَّة[1].

وقد تساوقَ الطِّباقان في إبراز تلك المُفارقة والمقابلة في نشف الماء من أسفل، وانقطاعه من علوٍّ؛ في صورةٍ تُظهر سرعةَ الاستجابة لأمر الواحد القهّار الذي يقول للشَّيء: كن فيكون، فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ مُقابلةٌ[2] بديعةٌ بين ذِكر الأرض حالَ بلعِها للماء في جوفها وقد غار من سطحها، وذِكْرِ السَّماء عند إقلاع مائها وحبسه؛ فهي تصوِّر تلك الصّورة العجيبة، وذلك المشهد العظيم في انتهاء الطّوفان على الأرض، وانقطاع سببه من السَّماء، وتصوير تلك السُّرعة في امتثال أمر ربِّهما في الحال في إزالة آثاره؛ كلُّ هذا في جملةٍ مختصرةٍ حاسمةٍ معبِّرةٍ عن جوِّها أعمقَ تعبير.

بلاغة الاكتفاءِ في ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾:

بلْعُ الأرضِ يكون للماءِ وغيرِه، بخلاف إقلاع السَّماء فلن يكون إلّا للماءِ

لمّا تقدَّم ذكر الماء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، اكتفى بذلك عن إعادة ذكرِه في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، فلم يقل: (ويا سماء أقلعي عن إنزال الماء)، وذلك لما عُلِمَ أنَّ المعنى: أقلعي عن إنزال الماء[3]، كما أنَّ أمرَ الأرضِ ببلعِ الماءِ يختلف عن أمرِ

(1) العلويّ، الطراز: 3/138.
(2) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/376.

السَّماءِ بالإقلاعِ عن إنزال الماءِ، وذلك أنَّ السَّماء لن تُقلع إلّا عن شيءٍ واحدٍ، وهو إنزال السَّماء المنهمر، أمّا الأرض، فإنَّها مأمورةٌ أن تبلعَ ماءَها فحسب، دون أمورٍ أخرى قد تبلعها مع الماء ممّا هو على ظاهرِ الأرضِ، فذكر المفعولِ في جانب الأرض، ليس كالتَّقييدِ في جانب السَّماء.

بلاغة التَّسهيم:

تـجـاوبُ الـكـلام أولِّه مع آخرِه

وقع في الآية تسهيم[1] بديع؛ لأنَّ أوَّل الآية يدلُّ على آخرها[2]، فأوَّل الآية: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾، فاقتضى آخرها: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾[3]، فبين الجملتين تكاملٌ في بيانِ إيقاف الطّوفان، والقولُ بالتَّسهيم مقبولٌ في بيانِ دلالةِ الجملةِ الأولى على الثّانية، لا في توقُّع نظمها، أو ذكر الجملةِ أصلًا، فقد يُدلُّ عليها بالتَّضمين والإيجاز، فشرطُ القولِ بالتَّسهيم هو أن يكون لا عن توقُّعِ المخاطَبِ كما هو في النَّثر، بل في كونِه تكاملًا بين جملتين تقتضي الأولى وجودَ الأخرى، وهذه خصيصةٌ من خصائص نظم القرآنِ.

الغرض من التعبير بالمجاز:

المـجـازُ في كـلمةِ (سماءُ) إمّا على الحذفِ أو المجاز المرسل

قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أي: أمسكي عن إرسال المطر، يُقال: أقلع الرَّجل عن عمله؛ إذا كفَّ، وأقلعت السَّماء؛ إذا انقطع مطرها[4]، والمجاز هنا في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ فإنَّ الحقيقة: (ويا مطر السَّماء أقلع)، على المجاز بحذفِ المضافِ، وإقامة المضاف إليه مكانه، أو مجاز مرسل والعلاقة محليَّة؛ لأنَّ السَّماءَ مَحَلُّ المطر، وذلك بما يسوقُه الله من غيمٍ حاملٍ للماءِ.

(1) التَّسهيم: أن يكون ما تقدَّم من الكلام دليلًا على ما يتلوه. يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 263.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(3) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70، والسُّيوطي، الإتقان: 3/330.
(4) البروسوي، روح البيان: 4/134.

دلالة العَطْفِ في: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾:

خبران متغايران في المعنى قام الآخر على بيان الأوَّل وتوكيده

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ عُطِفَ على ﴿وَقِيلَ﴾، والجامع عقليٌّ، ففي الآيةِ خبران: الأوَّل: أنَّه قيل: كيت وكيت، والآخر: أنَّه غيضَ الماء، فالأوَّل خبرٌ عمّا قيل، والآخر خبرٌ عمّا غيض، فهو عطفُ خبرٍ على خبرٍ، فهو توسُّطٌ بين الكمالين، وهو تابعٌ لأمر الأرض والسَّماء لاتِّصاله بقصَّة الماء وأخذه بحجزتها، ألا ترى أصل الكلام: (قيلَ: يا أرْضُ ابْلَعي ماءَكِ، فبلعت ماءها، ويا سَماءُ أقْلِعي عن إرسال الماء، فأقلعت عن إرساله، وغيضَ الماءُ النازل من السماء، فغاض)[1]، وهو مُغْنٍ عن التَّعرض إلى كون السَّماء أقلعت والأرض بلعت[2]، إذ هو بمنزلةِ نتيجة البلع والإقلاع[3]، وعلى هذا فذِكْرُ الغيض بيانٌ لكونِ الأمر قد تحقَّق، فأشبه ذكر الخبر الثّاني التَّوكيد والبيان، وجاء الفصل بين الجملتين؛ لأنَّهما خبران مستقلّان، أفاد كلٌّ منهما معنًى لم يُفِدْه الآخر.

وقيل: إنَّ في الآية لفًّا ونشرًا، فيكون قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ راجعٌ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾[4]، وذلك لما فيه من معنى التَّوكيدِ.

سِرُّ العطف بالواو في: ﴿وَغِيضَ﴾:

بيانُ امتثالِ الأرضِ والسَّماءِ بأحسن الإيجاز وأبلغه

مجيء (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ﴾ دون (الفاء) مع كونِها أظهرَ في هذا الموضع، فلفائدة جليلة، وهي: أنَّه لو جاء بالفاء لم يكن فيه دليل على امتثال الأمر من كلٍّ من الأرض والسَّماء، وكان التَّقدير: فبلعت الأرض ماءها، وأقلعت السَّماء عن المطر، وغيض، فهذا من أحسن الإيجاز وأبلغه، وهو من إيجاز الحذف، وهو كقوله

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/264.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/358.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النَّمل: 15]، أي: (آتينا داود وسليمان علمًا، فعملا به، وعلَّماه، وعرفا حقَّ النِّعمة، وقالا: الحمد لله)[1].

نكتةُ اختيارِ ﴿وَغِيضَ﴾ مخفَّفًا:

دلَّ (غيـــضَ) على البلعِ مرَّةً واحـدةً، وهو ما يُناسبُ (ابلعي)

اختير الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ دون (نقص) لدلالةِ (نقص) على التَّدرُّج، والأرض قد أُمرت بالبلع دون الابتلاع، فدلَّت على أنَّ المطلوب هو بلعُ الماءِ مرَّةً واحدةً دون تدرُّجٍ، و"الغَيْضَةُ: المكان الذي يقف فيه الماء، فيبتلعه"[2]، فالغيض هو بَلْعُ الماءِ مرَّةً واحدةً، وبه حصل التَّناسب بين لفظي البلع والغيض، ولو قال: (نقص)؛ لاضطرب الكلامُ، فكيف تؤمر الأرض بالبلع مرَّةً واحدةً، لا الابتلاع تدريجيًّا، ثم يُخبر أنَّها نقصت تدريجيًّا لا غاضت مرَّةً واحدة؟ كما اختير (غيضَ) المخفَّفة على (غُيِّضَ) المشدَّدة للاختصار[3]، ولموافقة ﴿وَقِيلَ﴾، ولحصولِ الأمر مرَّةً واحدةً لا تدريجيًّا.

دلالةُ بناء الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ للمفعول:

اعـتـبـار سَـبَـبِ الـــغَـــيْـــضِ، والإعـــلام بكون الماء مُسَخَّرًا بأمر الله تعالى

بُني الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾؛ لوجهين؛ أحدهما لفظيٌّ والآخر معنويٌّ:

أمّا اللَّفظيُّ؛ فلمناسبته الفعلَ قَبْلَهُ وزنًا ولفظًا؛ ليجريا على نسقٍ واحدٍ.

وأمّا المعنويُّ؛ فلأجل الإعلام بأنَّ الماء مُسَخَّرٌ بأمر الله تعالى، وتحت طاعته كسائر المخلوقات؛ ليس لواحدٍ منها تصريفٌ بنفسه في الحقيقة، فبُني للمفعول؛ ليُعلم أنَّ له من يغيضه، وهو الله ﷻ، فلو بُني للفاعل لم يكن ذلك منه حقيقةً ولا تصريحًا، بل بالإيماء والتَّأويل؛ والتَّصريح بالحقيقة أولى لاسيما في هذا المقام[4].

(1) الراغب، المفردات: (غيض).
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/352، وابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 167.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25، وابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168، 169.
(4) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168.

بلاغةُ الترتيبِ في الآية:

الترتيب بحسب الـوقـوعِ بـذكـر المقصود وإنجاز الموعود والتَّطلُّع للمنشود

اتبع النَّظم الكريم ذِكْرَ مقصودِ القصة بعد بيان مآل الطّوفان وزوال آثاره، فقال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: أُنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء المؤمنين[1]، وهو ترتيبٌ بديعٌ، فمشهدُ السَّفينة وقد رست على الجوديِّ لا يكون إلّا بعد أن يُقضى الأمر، فلمّا قال: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ تطلَّع الذِّهن إلى معرفةِ مصير السَّفينةِ وأهلها بعد الطُّوفان وانقضائه، فهذا ترتيبٌ بحسبِ الوقوع.

نكتةُ بناءِ الفعل للمفعولِ في ﴿وَقُضِيَ﴾:

المـقـصـودُ هو الاسـتـواءُ على الـجـوديِّ؛ وما قـبـلَـهُ فوسائل موصلةٌ لذلك

جملة ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ تعدُّ تمهيدًا لذكر السَّفينة وأهلِها وما يتعلَّق بهم، وهو مجيء ﴿وَقُضِيَ﴾ على البناء للمفعول، فلم يقل: (انقضى الأمر)، أو (قضى الله الأمر) أو نحو ذلك؛ بحيث يوافق هو فعلَ ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ بعده، وإنَّما أتى بالفعل ﴿وَقُضِيَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ للاختصار، ولمجيء أفعالٍ قبله على وتيرةٍ واحدةٍ مبنيَّةٍ للمفعول[2]، ولتعلُّقِها بما قبلها من حيث القولُ، فالغيضُ، فالقضاء.

بديع الإرداف والتَّمثيل في ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾:

التَّـنـبـيـهُ على المـعـنـى المـــرادِ إيماءً وإشارةً قد يـكـونُ أبـلـغَ من ذكرِه

عبارة ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ اختيرت بإحكامٍ بدل أن يُقالَ: (وهلَكَ من قضى الله إهلاكَهُمْ، ونجا من قضى الله نجاتهم)، وهو إرداف[3]، وإنَّما عدل عن التَّعبير، واخْتيرَ رَديفٌ له يؤدّي المقصودَ منه مع الإيجاز في العبارة، وهو التنبيهُ على أنَّ هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر آمرٍ أمْرُهُ تكْوين، إذا أراد شيئًا فَإنَّما يقول له: كن فيكون، وكان بقضاء مَنْ لا رادَّ لقضائه، والأمرُ يستلزم آمرًا وقضاءه، وهذا

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.

(2) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168.

(3) الإرداف: أن يُريد المتكلِّم معنًى فلا يُعَبِّر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدّال على المعاني الكثيرة، بل بلفظٍ هو ردف المعنى الخاصِّ، وتابعه قريبٌ من لفظ المعنى قربَ الرَّديفِ من الرِّدف. ينظر: قُدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص: 57، والعسكريّ، الصِّناعتين، ص: 350.

يدلُّ على قدرة الآمر به؛ وطاعةُ المأمور تدلُّ على قدرة الآمر وقهره، وأنَّ الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضّان على طاعة الآمر، ولا يحصل ذلك كلُّه من اللَّفظ الخاصِّ[1]، وجعلَهُ بعضُهم من قبيل التَّمثيل[2]؛ وهو التَّلويح عند الجمهور من علماء المعاني والبيان[3].

دلالة التَّعريف في لفظَي ﴿ٱلْمَآءُ﴾ و﴿ٱلْأَمْرُ﴾:

قال في الجملة السّابقة: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ دون أن يقول: (ماء طوفان السَّماء)، وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ دون أن يقول: (أمر نوح مع قومه)، وهو إنجاز ما كان اللّه وعدَ نوحًا عليه السلام من إهلاك قومه، وذلك لقصد الاختصار بالاستغناء ذُكِرَ المضافُ إليه بحرف التَّعريف العهدي[4]، لِما دلَّت عليه القصَّة في بيان هلكتهم، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فأغنى عن نعت الأمر هُنا[5]. وكذلك لو قيل: (أمرهم) لم يفِ بالمقصود؛ فأتى بلفظ المعرَّف بالأداة الدّالة على العهد الذِّكري الذي ذُكِرَ في هذه القصَّة[6].

الاختصارُ بالعهد الذِّكري أفخمُ من الإطنابِ بذكرِ التَّفاصيل

كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ إشارةً إلى جميع القِصَّة؛ من بَعْثٍ للماء وذهابه، وإهلاكٍ للقوم الظّالمين، وإنجاءِ أهل السَّفينة المؤمنين[7]، وهي إشارةٌ جامعةٌ للمعاني السّابقةِ كلِّها، فيها من بديع الإيجازِ اللَّفظيِّ والجمعِ المعنويِّ، والتَّرهيب للمجرمين، والترغيب للمؤمنين، ما لا يُحيط به لفظٌ.

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/362.
(2) وهو أن يُريد المتكلِّم معنى فلا يَدُلُّ عليه بلفظه الموضوع له ولا بلفظ قريب من لفظه، وإنَّما يأتي بلفظ هو أبْعَدُ من لفظ الإرداف قليلًا، يصلح أن يكون مثالًا للفظ المعنى المراد، يُنظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 58.
(3) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 58.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/376.
(6) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 170.
(7) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/285، وابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/175.

غرض الكنايةِ في الأفعال المبنيَّة للمفعولِ:

ترْكُ ذكرِ الفاعل لحتميَّة العلم به كنايةٌ بذكر اللّازم وإرادة الملزوم

لمّا أراد الحقُّ ﷻ أن يبيِّن معنى إرادةِ ردِّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها، وقطع طوفان السَّماء، وغيض الماء النّازل من السَّماء، فغاض، وقضاء أمر نوح، وهو إنجاز ما وعده اللّه من إغراق قومه فَقُضي[1]، فاختصرها النَّظم الكريم المعجز في بناء الأفعال (قيل، وغيض، وقُضيَ) للمفعولِ، فلم يصرِّح بِمَن غاضَ الماءَ، ولا بِمَن قَضى الأمْرَ، ومن سَوّى السَّفينَةَ على الحقيقةِ، كَما لَمْ يُصَرِّحْ بِقائِلِ: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ في صدر الآية، سُلوكًا في كلِّ واحد من ذلك سبيل الكناية؛ لأنَّ تلك الأمور العظام لا تتأتَّى إلّا من ذي قدرةٍ لا يُكتنه، قهّارٍ لا يُغالَب، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلَّت عظمته قائلًا: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ولا غائضًا ما غاض، ولا قاضيًا مثل ذلك الأمر الهائل، أو أن تكون تسوية السَّفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره[2].

والحاصل المتقرِّر عند أهل العلم أنَّ الفعل إذا تعيَّن لفاعل بعينه؛ استتبع ذلك أن يُترك ذكره، ويُبنى الفعلُ لمفعوله، أو يذكر ما هو أثرٌ لذلك الفعل على صيغة المبني للفاعل، ويُسند إلى ذلك المفعول، فيكون كنايةً عن تخصيص الصِّفة التي هي الفعل بموصوفها، وهذا أولى ممّا قيل في تقرير الكناية هُنا: إنَّ ترك ذكر الفاعل، وبناءَ الفعل للمفعول من لوازم العلم بالفاعل وتعيُّنه لفاعليَّة ذلك الفعل، فذُكِرَ اللّازمُ، وأريد الملزوم[3].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾:

مرحلةُ استواءِ السَّفينةِ هي مرحلةٌ مقصودةٌ في استقرارِ الأمرِ بعد الطّوفان

بَيَّن ربُّنا ﷻ حال استقرار السَّفينة بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، وكان جبلًا مُنخفضًا، فكان استواء السَّفينة عليه دليلًا

(1) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 2/272، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.

على انقطاع مادَّة الماء[1]، ودلَّ العطفُ بذكرِ استواءِ السَّفينةِ بعد نداء الأرض والسماء وأمرهما، وغيض الماء، وقضاء الأمر، على تحقُّقِ المقصودِ، والغاية ممّا كان؛ فالاستواء مرحلةٌ مقصودةٌ، فما قبلها وسائل موصلة إلى الغايةِ، وهي الاستواء على الجوديِّ.

دلالة استعمال ﴿عَلَى﴾:

بيان تمكُّن السَّفينة واستقرارها لتسهيل نزول الرّاكبين

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ بيانٌ لحكمة إرسائها على الجبل، وذلك أنَّ جانب الجبل أَمْكَنُ لاستقرار السَّفينة عند نزول الرّاكبين؛ لأنَّها تَخِفُّ عندما ينزل معظمهم، فإذا مالت؛ استندت إلى جانب الجبل[2]، فلا يخفى ما يفيده حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ من التَّمكُّن والاستقرار على الجبل.

سرُّ عُدول فعل ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ عن سابقيه:

رعاية المُقابلة للجريان المتأتّي منها في قوله: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ ولم يقل: (سُوِّيتْ) على الجودي؛ بمعنى أُقِرَّت على نحو: ﴿وَقِيلَ﴾ و﴿وَغِيضَ﴾ و﴿وَقُضِيَ﴾ مع كونه أنسبَ بأخواته المبنيَّة للمفعول، على اعتبار أنَّ بناء الفعل للفاعل مع السَّفينة المقابل للجريانِ في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ﴾، فناسب بناءُ الفعل للفاعل في ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ بناءَه للفاعل في ﴿تَجۡرِي﴾، مع قصد الاختصار في اللَّفظ[3].

سرُّ إضمار فاعل ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾:

قَصْدُ الاختصار لتقدُّم الضَّمائر الدّالَّة على المقصود

أُضمر الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ دون أن يقول: (واستوت السفينة على الجودي)؛ لأنَّه لو صُرِّحَ بذلك لكان تطويلًا، فإنَّ الضَّمائر تقدَّمت عائدةً عليها جملةً بعد جملة، فقال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 37]، وقال: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(3) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26، والآلوسي، روح المعاني: 6/263.

﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ وقال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي﴾ حتَّى قال: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾، أي: هي - يعني الفلك - والمقام مَقام اختصار، وليس هنا ما يوجب، أو يُحَسِّن إقامة الظّاهر مقامَ المضمر من لبسٍ وغيره[1].

نكتةُ اختيار لفظة ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾:

استُعمل لفظ ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ دون ما في معناها من مثل: (استقرَّت) أو (رست) المخصوص بالسُّفن في الاستعمال اللُّغويِّ، وذلك للخفَّة والاختصار؛ فالخِفَّةُ في اللَّفظ ظاهرةٌ، وكذلك الاختصار، فإنَّ (استوت) خمسة أحرفٍ، و(استقرَّت) سبعة، وكذلك فإنَّ (استقرت) تَدُلُّ على الاستقرار، و(استوت) تدلُّ على ذلك وزيادة، فإنَّها تدلُّ على الاستقرار والسَّلامة والاعتدال؛ قال اللّٰه تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزُّخرف: 13]، وأمّا عُدوله عن (رَسَتْ) مع الاختصار، وأنَّها مخصوصة بالسُّفن في لسان العرب؛ إذ يقولون: إذا وقفت السَّفن: (رست السَّفينة؛ إذا ثبتت - ترسو رسوًّا؛ إذا وقفت على المراسي)، والمراسي جمع (مرساة): وهي حَديدةٌ كبيرة ثقيلة تُرسى بها السُّفن، فتُدلَّى بالحبال الثِّخان حتَّى تَبْلُغَ قعر البحر، فتثبت، قال تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، أي: بسم اللّٰه جَريُها أو إجراؤها على وجه الماء، وثبوتُها أو إيقافُها عليه، فإذا عُلِمَ ذلك، فليُعلم أنَّه لو قال: (ورَست على الجودي)، لم يكن موافقًا للمعنى المُراد بالاستواء؛ لأنَّ الاستواء على الجَبَل، والرُّسوَّ على الماء[2].

الاستواء حدثٌ خاصٌّ لا يُقاس عليه استقرار عموم السُّفن في البحار

بديعُ الإرداف في: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾:

وقع الإرداف في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، فإنَّ حقيقة ذلك (وجَلَسَتْ على هذا المكان)، فَعَدَل عن لفظ المعنى الخاصِّ به إلى لفظٍ هو رِدْفُهُ، وإنَّما عَدَلَ عن لفظ الحقيقة لما في الاستواء

لفظُ الاستواءِ دالٌّ على التَّمكُّن الذي لا حركةَ بعده

(1) ابن الجزريِّ، كفاية الألمعي، ص: 171.
(2) ابن الجوزي، كفاية الألمعي، ص: 170.

الذي هو لفظُ الإرداف من الإشعار بجلوس متمكِّنٍ لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من قولك: جلستُ أو قعدتُ أو غير ذلك من ألفاظ الحقيقة، إذ كان المُراد الإخبارَ ينفي الأسباب الموجبة خوف أهل السَّفينة من السَّفينة في حالتَي حركتها وسكونها، وذلك لا يحصل حتَّى يفهم السّامع أنَّها جلست جلوسًا مُتمكِّنًا لا ميلَ فيه يوجبُ الخوف، ولا يحصل إلّا بلفظ الاستواء دون غيره[1].

دلالةُ الاعتراض بأكثرَ من جملة:

ازدحـامُ المعاني بـبـيـان نـــزولِ النِّعم بعد دفعِ النِّقم

من أحسن ما يمثَّل به اعتراضُ أكثر من جملةٍ في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ فإنَّها ثلاث جُمَلٍ معترضة، بين: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، وقوله ﷺ: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾، وفيه اعتراضٌ في اعتراض، فإنَّ قوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ مُعترِضٌ بَيْنَ: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ وبين ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾؛ ولا مانع من وقوع الاعتراض في الاعتراض عند البيانيّين، بل على قواعد النُّحاة أيضًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: 76]، فهذا اعتراضٌ في اعتراضٍ نحويٍّ، والذي قَبْلَهُ اعتراضٌ في اعتراضٍ بيانيٍّ[2]، ونكتتُه: ازدحامُ المعاني، وبيانُ جلالِ النِّعم في دفع النِّقم مرَّةً واحدةً.

توجيه ذكرِ ﴿ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ بالعلَميَّة المطلقةِ:

الجـوديُّ لنوحٍ، والـطّـور لموسى ﷺ بدايةُ عملٍ ومرتكزُ أملٍ

لم يُعيِّن النَّظم أنَّ الجوديَّ جبلٌ، فلم يقل: (واستوت على جبل الجوديِّ) ليُعلم أنَّه جبل؛ لأنَّ الجوديَّ علَمٌ لهذا الجبل المعروف، والألف واللّام ليست للتَّعريف، بل زائدةٌ تقع في الأعلام لغلبتها على من هي له كالبيت للكعبة، والمدينة لطَيبة، والنَّجم للثُّريا، والجودي لجبل الجزيرة، فلم يحتج إلى ذكر الجبل؛ لأنَّ هذه الأسماء في نفسها

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 207.
(2) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/618.

أعلام، فلو قيل: على جبل الجوديِّ؛ لكان من إضافة الشَّيء إلى نفسه، وهو تطويلٌ بلا فائدة، والمقام مقام اختصارٍ وإيجاز؛ فعُلم أنَّه جبل من حيث العلميَّة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [مريم: 52]، وقال: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ [طه: 80]، يعني بذلك جبل الطّور المعروف، وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام، ولم يقل في شيءٍ من ذلك: (جبل الطور) إيجازًا واختصارًا للعِلم به[1]، وإجراءً له مُجرى ما كان للطُّور، فإنَّ الطّور جبلُ موسى عليه السلام الذي انطلق منه في تلقّي الرِّسالة والدعوةِ، وكذلك الجوديّ هو الجبل الذي انطلق منه نوحٌ عليه السلام ومن معه من المؤمنين للدَّعوة، فهما جبلان يجب أن يُعرفا باسمهم العَلَم؛ ليكونا منارًا للمؤمنين، أمّا الطّور؛ فهو بداية العمل، ومرتكز الأمل، وأمّا الجوديُّ؛ فهو بداية عملٍ جديدٍ، وانطلاقة للبشريَّة فريدة.

نكتةُ بناء فعل ﴿وَقِيلَ﴾ للمفعولِ:

في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يحتمل قائل: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن يكون الله عز وجل، فيكون جريًا على طريقة قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، والظاهر أنَّه من كلام الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى يقول بُعيد ذلك في قصة هود: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: 60]، وفي قصة ثمود: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: 68]، وفي قصة شعيب: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: 95]، والقائل في ذلك كلِّه هو الله تعالى، والقرآن يفسِّر بعضُه بعضًا، فيجري القول على نسقٍ واحدٍ[2]، ويحتمل أن يكون القائلُ نوحًا عليه السلام ومن معه من المؤمنين؛ لأنَّ الغالب ممَّن يسلَم من الأمر الهائل بسبب اجتماع القوم الظَّلمة أنَّه يقول مثل هذا الكلام[3]؛ تحقيرًا للكفّار، وتشفّيًا منهم، واستراحةً من بلائهم، فالاحتمالان قائمان، والاحتمالان مقبولان.

تعميمُ أفرادِ الفاعلين، وشمولُ كلِّ قائلٍ يصلح أن يقول: (بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ)

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 172.
(2) ابن الجزريّ، كفاية الألمعي، ص: 148.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

ومن هنا فإنَّ فعلَ ﴿وَقِيلَ﴾ بُنِي للمفعول؛ لعدم الحاجة إلى معرفة قائله[1]، وللإشارة إلى أنَّ كلَّ من عَلم بشأنهم قال: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيدخل في ذلك الملائكةُ، والإنس، والجنُّ، وكلُّ من له عقلٌ، أو ملأ قلبَه إيمانٌ، وفي هذا إعلامٌ بهوان المُهلَكين والرّاحة منهم[2]، وفيه أيضًا تعليمٌ من الله تعالى لعباده أن يدعوا على الظّالمين به[3]؛ فيكون جاريًا مجرى الدُّعاء عليهم[4].

فائدة استعمال المصدر ﴿بُعْدًا﴾:

بُعْدُ الظّالمين بُعدٌ لا يُرجى منه عود؛ فهو دالٌّ على الاستمرار والثّبات

المصدرُ ﴿بُعْدًا﴾ هو من (بَعِدَ) بالكَسْرِ مُرادًا بِهِ البُعْدُ من حيثُ الهلاكُ، هلاكًا وخَسارًا لهم وبُعدًا من رحمة الله، فإنَّهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبقَ لهم بقيَّة[5]، فإنَّ حقيقتَهُ: بُعْدٌ بعيدٌ لا يرجى منه عوْدٌ ولا قربٌ، ثُمَّ اسْتُعيرَ للهلاك، وخُصَّ بدعاء السّوءِ، وعَبَّرَ بالمصدر لتعليقهِ باللّام الدّالَّةِ عَلى الاسْتِحقاقِ والاختصاص[6]، وقال: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ﴾، ولم يأتِ بالفعل، فلم يقل: (ليبعُد القوم) طلبًا للتَّأكيد مع الاختصار، وهو تنزيل ﴿بُعْدًا﴾ منزلةَ ليبعدوا بُعدًا[7]، وللدَّلالة على الحدث المُطلق غير المقيَّد بزمن أو بفاعل، وللدَّلالة على الثُّبوت والاستمرار.

بديع التَّورية التّامَّة والكناية في ﴿بُعْدًا﴾:

إرادةُ معنى الإبعاد والإهلاك في لفظٍ واحدٍ إيجازٌ بديعٌ

وقع المصدر ﴿بُعْدًا﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - موقعًا بديعًا من التَّورية التّامة؛ إذ يَصِحُّ في ﴿بُعْدًا﴾ كلٌّ من المعنيين: الإبعاد، والهلاك، ويشهد للأوَّل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/292.
(3) البروسوي، روح البيان: 4/134.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/280.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/292.
(7) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ [البقرة: 161]، أي: البُعداء يلعنهم الله تعالى، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون[1]، ويَشْهَدُ للثّاني قولُه تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: 95]، والدَّليل على جواز إرادة المَعْنَيَيْن وكونه من التَّورية التّامة: أنَّه لم يورِد ﴿بُعۡدٗا﴾ بالفتح، فإنَّه لو أراد الهلاك فقط؛ لكان بالفتح[2].

ويصح أن يكون استعمال ﴿بُعۡدٗا﴾ كنايةً عن التَّحقير بلازم كراهية الشَّيء، فلذلك يُقال: بَعُدَ أو نحوه لمن فُقِدَ؛ إذا كان مكروهًا كما هُنا[3].

معنى اللّام الدّاخلة على ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

استعمال اللّام - في قوله تعالى: ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بَعْدَ قوله تعالى: ﴿بُعۡدٗا﴾ - دالٌّ على معنى أنَّ البُعْدَ حُقَّ لهم[4]، فهي دالَّة على استحقاق الهلاك[5] والإبعاد، لما اقترفوه من الكفر، وقرنه بالسُّخرية والاستخفاف بصنيع رسول الله فيهم.

إبعادُ الله للظالمين لا يكون إلّا عن استحقاقِهم لذلك

معنى التَّعريف في: ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾ - في قوله تعالى: ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - للعهد الذِّكري[6]، أو للعِوض عن المضاف إليه، كأنَّه قال: (لقوم نوحٍ الظّالمين)، فذلك كقوله تعالى في آخر قصَّة عاد: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: 60].

إفادة العهد الذِّكري للفظ القوم المتكرِّر في القِصَّة فيما سبق من الآيات

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 1/138.
(2) ابن الجزريّ، كفاية الألمعي، ص: 195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.

فائدةُ ذكر: ﴿لِّلْقَوْمِ﴾:

تعيينُ المقصود ودفْعُ تخصيصِ العموم

المراد بالقوم في قوله تعالى: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: المعهودين في هذه القِصَّة التي كان فيها من شِدَّة القيام فيما يحاولونه ما لا يعلمه أحد إلّا الله[1]، ولم يقل: (بُعْدًا للظالمين) مع أنَّه أخصر والمقام مقام إيجازٍ - كما تقرَّر - وفائدة ذلك الإيضاحُ، ورفعُ اللَّبس، والإعلامُ بأنَّهم قومُ نوحٍ الذي أُرسل إليهم، فكفروا به، لا عموم الظّالمين؛ فإنَّه لما تقدَّم أوَّلَ القصَّة وبعدَهُ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: 33]، وغيرها حيث كرَّر ذِكْرَ القوم في سبعة مواضع، فناسب أن يختم القصَّة عند ذكر ما آل إليه أمرهم بقوله تعالى: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ كي لا يُظنَّ بهذه المخالفةِ في إسقاطِ لفظِ (القوم) إرادة العموم، فيتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ آلة التَّعريف في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للجنس، وهو خلاف المقصود، فلا يحصل رفعُ التَّوهُّم إلّا بذكر القوم؛ فقد صار الإتيان بها يفيد معنًى لم يفده الكلام بدونها[2].

سرُّ التعبير بالظّالمين دون الكافرين:

المناسباتُ اللَّفظيَّة وردُّ آخرِها على أوَّلِها تمتينٌ للسّياقِ وتقويةٌ للنَّظم

خصَّ النَّظمُ وصفَ الظُّلم دون أوصافٍ أخرى في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للآتي:

أولًا: وضوحُ اتِّصافِهم بهذه الصفة أكثر من غيرِها، وقد تقدَّم قوله تعالى في هذه القِصَّة من هذه السّورة: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: 37].

ثانيًا: الإشْعارُ بعلّيَّتِهِ للهلاك، فالظُّلم مجلبةُ كلِّ قبيح.

ثالثًا: تَذْكيرُ نوحٍ عليه السلام ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/292.

(2) ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ص: 198.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 37]، فإنَّ المراد بالظّالمين هاهنا قومُ نوحٍ الذين قدَّم ذكرهم ووصَفهم بالظُّلم، ونهاه عن المُخاطبة فيهم ليرتَدَّ عجُز الكلام على صدره، ويُعلم أنَّ المدعوَّ عليهم هم الذين تقدَّم ذِكرهم[1]، فكان ذِكْرُ الظّالمين هُنا أنسبَ لذلك[2].

رابعًا: تعريضٌ بجميع الظالمين، وتحذيرٌ لهم لكيلا يسلكوا مَهْيَعَ قوم نوحٍ الظالمين، فيحيق بهم العذاب، كما حاق بقوم نوح.

خامسًا أُطلِقَ الظُّلم ليتناول كلَّ نوعٍ حتَّى يدخل فيه ظُلمُهم أنفسَهم في فسقِهم، لزيادة التَّنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرُّسل؛ ليوافق قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾ [الذّاريات: 46]، ويتناول الظُّلم بمعنى الشِّرك والكفر[3]؛ ليوافق قوله تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]، فأطلق الظُّلم ليتناولَ ظُلمَ أنفسهم وظلمَهم غيرهم[4]، لزيادة التَّنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التَّكذيب من حيث إنَّ تكذيبهم للرُّسل ظلمٌ على أنفسهم؛ لأنَّ ضررَهُ يعود إليهم[5].

بلاغةُ التَّعريض بالظّالمين:

في قوله تعالى: ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خُتِمَ الكلام بذكر الظالمين من قوم نوحٍ عليه السلام، على طريقِ التَّعريض تنبيهًا لسالكي مسلكهم أنَّ في تكذيب الرُّسل ظُلْمًا لأنفسهم لا غير، وإظهارًا لمكان السُّخط ولجهة استحقاقهم إيّاه؛ لأنَّه يُنبئُ عن الظُّلم المُطلق وعن علَّة قيامة الطّوفان[6]، وأنَّ قيامة الطّوفان وتلك الصّورة الهائلة ما

تنبيهُ الأمم اللّاحقة على ما وقع للأمم الغابرة رحمةٌ بهم ورأفةٌ بحالهم

(1) ابن أبي الأصبع، تحرير التَّحبير، ص: 198.
(2) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 176.
(3) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(6) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

كانت إلّا لظلمهم[1]، كما يُؤذِن بذلك الدُّعاء بالهلاك بعد هلاكهم، والوصف بالظُّلم مع تعليق الحُكم به[2].

بلاغةُ الاحتراس:

بيان أنَّ المُهلَكين هُـم الـظّـالـمون فقط

في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ احتراسٌ بديعٌ[3] حتى لا يتوهَّم واهِمٌ أنَّ الطّوفان أغرقَ كلَّ من في الأرض يومها، فجاء الدُّعاء على الظّالمين مُبيِّنًا أنَّ الذين أُغرقوا هم الظّالمون فقط، احتراسًا من ضعيف العقل أن يتوهَّم أنَّ العذاب شمل من يستحقُّ، ومن لا يستحقُّ، فتأكَّد بالدُّعاء كونُهم مُستحقّين[4] هلاكَهم بسببِ ظلمهم.

بلاغةُ الإيجاز:

اقـتـصـاص القصة بألفاظٍ قليلة مستوعبةً للمعاني الكثيرة

قصَّتِ الآيةُ القِصَّةَ مُستوعبَةً بأخصر عبارة[5]، بحيث لم يُخلَّ منها بشيء وبألفاظ غير مطوَّلة؛ والإيجاز لذكر القصة باللَّفظ القصير مستوعبًا للمعاني الجمَّة[6]، فإنَّ أعظم ما فيها شرح قصَّةِ نوحٍ في الطُّوفان من أوَّله إلى آخره في هذه الألفاظ القلائل[7]. و في هذه الآية من الإيجاز ما يعجز البيان عن استيفاء تحليله وشرحه، فقد أمر فيها ربُّنا، ونَهى، وأخبرَ، ونادى، ونعَتَ، وسمّى، وأهْلَكَ وأبْقى، وأسْعَدَ، وأشْقَى، وقصَّ من الأنباء ما حقَّق به الغاية القصْوى من البيان[8].

وهذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، واستذلت مصاقع العرب، فسفعت بنواصيها، وجمعت من المحاسن

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(3) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(4) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 198، وابن الجزريِّ، كفاية الألمعي، ص: 212.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70، والنّويري، نهاية الأرب: 7/176.
(7) الدَّميري شرح لامية العجم، ص: 44.
(8) ابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 430.

ما يضيق عنه نطاق البيان، وكانت من سمهريِّ البلاغة مكان السِّنان[1]، قال بعضهم: هذه الآية أبلغ آية في القرآن، لاحتوائها على أحد وعشرين نوعًا من أنواع البديع، والحال أنَّ كلماتها تسعة عَشَرَ[2].

وفيما يلي ذِكْرُ بعض وجوه البديع على وجه العُموم بعد ذكر شيءٍ صالحٍ منها ممّا يتعلَّق بجُمَلها على وجه التَّفصيل فيما سبق.

وقد جاءت جُمل الآية معطوفًا بعضُها على بعضٍ بواو النَّسق على التَّرتيب الذي تقتضيه البلاغة؛ لأنَّه سبحانه بدأ بالأهمِّ؛ إذ كان المُراد إطلاقَ أهل السَّفينة من سجنها، ولا يتهيَّأ ذلك إلّا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض، فأمرَها بالبلع، ولمّا عُلِمَ أنَّ الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء، ولم تقطع مادَّة الماء تأذّى بذلك أهل السَّفينة عند خروجهم منها، وربَّما كان ما ينزل من السَّماء مُخلِفًا لما تبتلعه الأرض، فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السَّماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالبلع، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض، وانقطعت مادَّة السَّماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدِّمَتين، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، أي: هلك مَن قُدِّر هلاكه، ونجا مَن قُضيت نجاته، وهذا كُنْهُ الآية، وحقيقة المعجزة، ولا بُدَّ وأن تكون معلومةً لأهل السَّفينة، ولا يمكن علمهم بها إلّا بعد خُروجهم منها، وخروجُهم منها موقوفٌ على ما تَقَدَّم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السَّفينة على الجوديِّ، أي: استقرارها على المكان الذي استقرَّت فيه استقرارًا لا حركة معه، لتبقى آثارها آيةً لمن يأتي بعد أهلها، وذلك يقتضي أن يكون بعدما ذكرنا، وقوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هذا دُعاءٌ أوجبه الاحتراس ممَّن يَظُنُّ أنَّ الهلاك ربَّما شَمَلَ من لا يستحقُّ، فدعا سبحانه على الهالكين، ووصفَهم بالظُّلم احتراسًا من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كلِّ ما تقدَّم، فانظُر إلى حُسْن هذا النَّسق، وكيف وقع القولُ فيه وفقَ الفعل سواء[3].

فرتَّب النَّظم الكريم الأحداث بواو النَّسق، حسب الأهميَّة، وبمنطقيَّة وتكامل وتناسق

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/261.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/137.
(3) ابن أبي الاصبع، تحرير التَّحبير، ص: 425.

عجيب، حيث عطف القضايا بعضَها على بعضٍ بحسن ترتيب[1]، فالجمل المتتالية التي جاء بعضُها معطوفًا على بعضٍ متلاحمةٌ تلاحمًا سليمًا مُستحسنًا، وكلٌّ واحدةٍ منها قابلةٌ لأنْ تستقلَّ بنفسها لو أُفْرِدَتْ.

بلاغة فنِّ التَّنظير بين هذه الآية وغيرها:

الآيـة ساميـةٌ ومـتـفـرِّدةٌ في ألـفـاظـهـا وأسلوبها مقارنةً بغيرها

فنُّ التَّنظير[2] في الآية يظهر في توصيف قصَّة الطوفان التي انطوت على الكثير من العقد والحلول والعبر، وهو نظرٌ إلى مكوِّنات القصَّة وخصائصها ومرتكزاتها، باعتبار مقارنتها بغيرها من القصص، حيث جاءت ساميةً عليها جميعًا باستقصاء جميع ما اتَّفق فيها وما سَنَحَ[3].

بديعُ الائتلافِ بين الألفاظِ والمعاني في الآيةِ الكريمة:

ائـتـلافُ الألفاظِ في الآيـة مبايـنٌ لائـتـلافِـهـا في نظم النّاس

من مظاهر الإعجاز وما اشتملت عليه هذه الآية من الحسن والطَّلاوة والرَّونق والمائيَّة التي لا يَقْدِر البشر على الإتيان بمثلها، ولا يستطيع أفصح النّاس وأبلغ العلماء مضاهاتها؛ ائتلافُ[4] ألفاظها ومعانيها، فأمّا ائتلافُ اللَّفظ مع اللَّفظ؛ فلأنَّ كُلَّ لفظةٍ لا يصلحُ موضعَها غيرُها[5]، على أنَّ ألفاظها المُفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة، فقوَّة التَّركيب وحُسْنُ السَّبك هو الذي ظهر فيه الإعجاز؛ وأفحمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللَّفظة الأولى بالثّانية والثّالثة بالرّابعة، وكذلك سائرُ الألفاظ إلى آخر الآية، ويشهد لذلك

(1) النّويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 7/176.

(2) التَّنظير ويُسمَّى المفاضلة: أنْ يَنظُر الإنسان بين كلامين: إمّا متفقَي المعاني أو مختلفَي المعاني، ليظهر الأفضل منهما، فالمفاضلة بين الألفاظ والمعاني على اتِّفاقهما واختلافهما فمتى وجدا في أحد الكلامين دون الآخر، أو كانا أخصَّ به من الآخر، حُكم له بالفضل. يُنظر: ابن الأثير، المثل السّائر: 3/270.

(3) مُحيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/365.

(4) الائتلاف نوعان: ائتلاف اللَّفظ مع اللَّفظ، وهو أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضًا، بأن يُقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعايةً لحسن الجوار والمُناسبة، والنّوع الثّاني من هذه الملاءمة ائتلاف اللَّفظ مع المعنى، أن يحكي صوتُ الكلمة صوتًا يوجد فيما دلَّت عليه.

(5) النّويري، نهاية الأرب: 7/176، والسُّيوطي، الإتقان: 3/330.

أنَّك لو أخذت لفظةً منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لابسةً من الحُسْنِ والرَّونق ما لبسته في موضعها من الآية، ولكلِّ كلمةٍ مع صاحبتها مقام[1].

وأمّا ائتلاف اللَّفظ مع المعنى؛ فإنَّ ألفاظ هذه الآية الشَّريفة تُسابق معانيَها، ومعانيها تُسابق ألفاظَها، حيث يوجد انسجام قويٌّ، وائتلافٌ محكَمٌ بين الألفاظ ودلالتها، وهذا يدلُّ على حُسن اختيار الألفاظ المعبِّرة عن المعنى المطلوب[2].

بديع التَّهذيب في الآية:

شروطِ الفصاحةِ ورونق العذوبةِ وحسنِ البيان

من مظاهر الإعجاز في هذه الآية الكريمة التَّهذيب؛ لأنَّ مُفرداتها موصوفة بصفات الحُسْنِ، فكلُّ لفظةٍ سهلةُ مخارجِ الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلوِّ من البشاعة وعقادة التَّركيب[3]، والسَّلامة من التَّنافر والغَرابة ومُخالفة القياس، وفي الانسجام تُحدَّد الكلمات بسهولة وعذوبة وجزالة، يقتضيها المقام ويتطلَّبُها مقتضى الحال[4].

بديع حسن البيان والوصف:

تجلّي وصفِها في استعمال نعوت ألفاظها وصفات معانيها

حُسْنُ البيان من جهة أنَّ السّامع لا يتوقَّف في فهم معنى الكلام، ولا يُشكِل عليه شيء من هذا النِّظام[5]، حيث قصَّ النظم الكريم القِصَّةَ، ووصفها بأحسن وصف، حيث استعمل نعوتَ ألفاظها وصفاتِ معانيها[6].

بديع الانسجام:

انسجامُ الألفاظ، وتعانق الجمل، وتآخي النَّظم تجمِّلُ في اللِّسان، وتعظمُ في الجنان

يتجلَّى الانسجام[7] في جُمل هذه الآية الكريمة مُنسجمةً، كالماء

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 2/281، وابن الأثير، المثل السّائر: 1/152.
(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/360.
(3) السُّيوطي، معترك الأقران: 1/319.
(4) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/360.
(5) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 613، والآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(7) الانسجام: هو سلامة الألفاظ، وسُهولة المعاني مع جزالتهما وتناسبهما. يُنظر: الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 335.

الجاري في السَّلاسة[1]، من سهولة سَبْكٍ وعذوبة ألفاظٍ، حتّى يكون للجملة الواحدة منها وقعٌ في النُّفوس عجيبٌ، وتأثيرٌ في القلوب يطيب، فالنّاظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية، هي نظمٌ للمعاني لطيف، وتأديةٌ لها مُلخَّصةً مبيَّنةً، لا تعقيد يُعْثِرُ الفِكْرَ في طلب المُراد، ولا التواء يشيك الطَّريق إلى المُرتاد، فما من لفظةٍ فيها تسبق إلى أُذنك إلّا ومعناها أسبقُ إلى قلبك، وأمّا النّاظرُ فيها من جانب الفصاحة اللَّفظية؛ فألفاظُها عربيَّة مُستعملة جارية على قوانين اللُّغة، سليمة عن التَّنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العَذَبات، سلسلة على الأسلات، كُلٌّ منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنَّسيم في الرِّقة[2]، ولله تعالى درُّ التَّنزيل ماذا جَمعت آياته:

وعلى تفنُّنِ واصفيه بحُسنهِ *** يفنَى الزَّمانُ وفيه ما لم يوصَفِ

ومع ما ذُكر في شرح مزايا هذه الآية بالنِّسبة إلى ما فيها؛ قطرةٌ من حياض، وزهرةٌ من رياض[3].

(1) ابن معصوم، أنوار الرَّبيع، ص: 430.

(2) القزويني، الإيضاح، ص: 253.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/265، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/83.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»